البطولة في الأدب الجزائري

بقلم ابو القاسم سعد الله

تمهيد :

هل صحيح ان الاستعمار والحرب والظروف تقتل الادب والادباء ؟ وهل يصح ـ بناء على ذلك ان ندعي بان الجزائر ـ البلد العربي العريق ـ خالية من الادب ومن الادباء لانها عانت وما زالت تعاني من الاستعمار والحرب والظروف ؟ لقد اعترف غير واحد بذلك في مناسبات شتى اهمها المناسبات الثقافية والادبية . فكلما وقف جزائري في مؤتمر جامع او ندوة عامة او حتى في مناسبة شخصية، تأوه وتأسف وصب اللعنات على الاستعمار والحرب والظروف .. تلك التي انتزعت ـ في نظره ـ مواهب الجزائريين وغسلتها في البحر المالح فعاقتها بذلك عن الاخصاب والازدهار .

والحقيقة ان هذه الاعذار لم تعد تخفى على الواعين المؤمنين برسالتهم الوطنية والادبية من الجزائريين انفسهم . كما انها من غير شك لم تخف على القراء والسامعين من العرب وغير العرب في كل مناسبة قيل فيها مثل ذلك الكلام ، وصيغ فيها ذلك الاعتذار البارد .. غاية الامر ، وبكل بساطة ، ان ما يقال عن الادب والادباء في الجزائر الان هو حقنة مسكنة تشفع لالمها تلك السمعة الهائلة لبطولة الجزائر في حرب التحرير ومقاومتها الخارقة .. ان هذه السمعة وهذه البطولة هي التي تسحر القراء والسامعين وتنسيهم ما هم فيه من الحديث عن الادب والادباء. ولكنهم عندما يعودون الى رشدهم وتبرز امامهم علامة الاستفهام من جديد يتوارى اولئك المتاون عن الانظار في براعة فائقة .

انا شخصيا ارى ان الاستعمار لا يقتل الادب ولكن يلونه بالوان مختلفة فيخلق مثلا ادب الرمز والادب المنحرف او الشاذ ويخلق الصراع بين الادب المتحرر والرجعي.. كذلك ارى ان الظروف لا تقتل الادب ولكن تكيفه فتجعل منه الادب الذاتي او الموضوعي والادب الهادف او التعبيري والادب النموذجي المثالي او الحيادي الواقعي .. كما ارى ان الحرب كفيلة بتوسيع مجالات الادب او تضييقها . انها هي التي تعطي للاديب فرص الانطلاق وتحطيم المفاهيم السائدة وتسلحه بطاقات جديدة لا يظفر بها اثناء الركود وسيادة العادات والتقاليد الرجعية .

وان الزمن خير شاهد على ما نزعم فالمدارس الادبية من رومانسية وواقعية ورمزية والتيارات الاجتماعية من ارستقراطية وبرجوازية واشتراكية .. كل هذه مدينة في تلوينها واخراجها وقوة دفعها وتكيفها . الى تلك العوامل التي اتينا بها وهي الاستعمار والحرب والظروف ..

ولا نحب الان ان نسترسل في التمثيل والتاريخ .. وحسبنا ان نقول .. ان طاغور وماركس ورسو وادباء الهجر وشكسبير ومحمد العيد وابن باديس وغيرهم خير الامثلة على تدخل تلك العوامل في تكييف المبادىء من ناحية والاشخاص من ناحية اخرى .. وعلى هذا الاساس قام الادب الجزائري المعاصر . لقد لونه الاستعمار بلون خاص وطبعته الحرب بطابع مميز وصبغته الظروف بصبغة معينة .

وبذلك يتضح ان ما يزعمه بعضهم من موت الادب وانقطاع الادباء الجزائريين غير صحيح وان الاولى لنا ان نفهم ذلك الزعم على انه عجز عن هضم الواقع واستحضار التاريخ وتمثل الاسباب الحقيقية لفهم حركة الادب في الجزائر .

ومن الخير لنا ان ندرس الادب الجزائري ليتبين صدق ما نقول ولنبدأ اليوم بزاوية واحدة من زواياه المختلفة وهي زاوية البطولة لنرى كيف عالجها ومدى تعبيره عنها ومدى اختفاء ادباء الجزائر بهذا اللون الرائع من الوان التعبير شعر ونثرا .

١ ـ في الرواية

ان النثر اشد التصاقا بالارض من الشعر وقد تجلت هذه الحقيقة في النثر الجزائري بعامة ، والرواية بخاصة .. فقد ساعدت ظروف الجزائر بعد الحرب العالمية الاولى على سيادة المذهب الواقعي ووجد فيه الكتاب على اختلاف ميولهم وثقافتهم مجالا للتعبير عن واقع البلاد بما فيه من متناقضات وما يعيشه من عزلة وحرمان وما يكثر فيه من دعاوى الحرية والوطنية والديمقراطية والرخاء في الوقت الذي يعيش في قيود ثقيلة وشقاء مزمن . غير ان هذه الواقعية لم تسد بما تحمله من تشاؤم ونظرات سوداء وما قد تزرعه من بذور الحقد والطبقية بل سادت الواقعية في الادب الجزائري ـ الا قليلا ـ لما فيها من وصف مادي للحياة الاجتماعية المخيفة التي يحياها عشرة ملايين من السكان ولما فيها من امكانيات التعبير الصريح عن تلك الحياة واهلها .. ولذلك لم يعالج النثر الجزائري في تلك الفترة الا الموضوعات المادية الصميمة او الحيوية الصارخة كالفقر والتعليم والحرية والهجرة .. تلك التي عانى منها الشعب كثيرا في ظل الاحتلال .

ومن هنا لا نعجب حين نرى ونسمع اولئك الابطال الذين يعالج الكتاب من خلالهم تلك المشكلات يصورون الحياة الاجتماعية بجميع ما فيها ببؤسها وحاجتها وشعورها بالمرارة وثورتها على الظلم والعسف .. انهم ابطال واقعيون يعيشون في مستوى الشعب المادي وقلما يشاركونه حياته الروحية .. انهم يشعرون ويعملون كما يعمل .. ليسوا خياليين مثاليين كما انهم ليسوا انهزاميين رجعيين . انهم افراد تتمثل فيهم طبائع البيئة بخيرها وشرها بحقدها وتعاونها بفشلها وانتصارها بارتباطها

بالماضي وتطلعها الى المستقبل .. هذا هو البطل كما فهمته الرواية الجزائرية .. شخص عادي يركز الكاتب فيهوعليه كل مشاعر المواطن.. ليس له مؤهلات خاصة ولا استعدادات فطرية او طارئة لا توجد في سواه .

فهذا عمر بطل محمد ديب في روايته الكبيرة الرائعة « البيت الكبير » « الحريق » «المنسج » تعرفه منذ كان طفلا يعيش مع امه في منزل قديم عفن في مدينة تلمسان الى ان يصبح رجلا عاملا في مصنع للنسيج ينتظر مصيره تماما كما ينتظره الالاف من مواطنيه وهو المصير الذي تحدد بقيام ثورة ١٩٥٤ وعمر في تنقله من مرحلة البيت الى المدرسة ثم الريف ثم المصنع او فلنقل من تنقله من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج لم يسر في غير الطريق التي رسمها له المؤلف وهي طريق ليست غريبة على الذين عاشوا او شاهدوا تلك البيئة اذ ليس في الجزائر مهنة او وظيفة محددة يعد لها الفرد ليشغلها يوما ما فلم يبق الا انيكون مستعدا للصراع مع الحياة في جميع اشكالها . والبطل عمر في طفولته صورة لالاف الاطفال الجزائريين في تشردهم وضياعهم وهو في شبابه صور اخرى لالاف العمال الذين يثورون ويشكون ويبأسون ويتضرعون لانواع شتى من المذلة والهوان وفيهم من يعيش بلا مستقبل في تخاذل ويأس ومن يتطلع الى غد كريم في ثورة وعنف وفي ثقة وايمان.. وهكذا .

كذلك نجد بطل رواية (العتاريس) لادريس الشرايبي ينزل الى نفس المستوى الذي يعيشه مواطنوه في باريس .. اولئك الذين يحيون رواسب نفسية ومادية وخلقية اعتنقوها منذ كانوا في الجزائر ونقلوها معهم او نقلت اليهم في فرنسا . ان البطل في هذه الرواية اديب فنان له احساس خاص ومن حقه ان يحيا حياة ارقى من تلك التي انغمس فيها ابناء وطنه ورسبوا فيها الى القاع ومع ذلك تأبى عليه انسانيته الا ان ينغمس في نفس الحياة ويغوص الى نفس القاع انه يواكلهم ويجادلهم ويحترف اعمالهم بل ينزل الى تفكيرهم .. وهكذا لم يبق من فارق بين البطل وبين سائرالمواطنين حتى في الاحساس الخاص الذي حاول الشرايبي ان ينقله الينا على السنة وفي اعمال تلك العتاريس الادمية .

ومثل ذلك يقال في عامر بطل (الارض والدم) رواية مولود فرعون ، وابطال كاتب ياسين في روايته (نجمه) .

وهناك رواية اخرى صغيرة نحب ان نقف عندها قليلا تلك هي رواية (غادة ام القرى) لاحمد رضا حوحو « ١٩٤٧ » وبطلتها «زكية» فتاة حرمت لذة العلم وممارسة حقوقها الطبيعية كانسانة من ناحية وامرأة من ناحية اخرى وفي هذه الرواية الصغيرة يعالج الكاتب مشكلة الحجاب تلك المشكلة التي شغلت الاذهان والاقلام زمنا طويلا والتي ما يزال مجتمعنا يعاني منها حتى الان . وبالرغم من ان حوحو قد كتبها عن اسرةتعرف عليها فيالحجاز الا انهموذجها وفكرتها في الجزائر ولا فرق بين البيئتين في هذه الناحية في ذلك الحين . ولعل حوحو لم يستطع ان يخرجها على الناس باسم اسرة جزائرية خوفا من سلطة المجتمع التي كان لها الحكم الاول والاخير اثناء تلك الفترة ولذلك اكتفى باهدائها الى « تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب والعلم والحرية ... الى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود .. الى المرأة الجزائرية تعزية وسلوى » . ومع هذا الهروب من المجتمع فلم تسلم الرواية ولا الكاتب من بعض السهام والغمزات والبطلة ـ زكية في هذه الرواية تمثل جمهرة الفتيات الجزائريات اللائي يقاسين من عذاب المنزل او السجن ما قد يؤدي بحياتهن كما اودى بحياة زكية وهي التي سيظهرها الكاتب في شخصية عائشة اقصوصته في (نماذج بشرية) مع فارق بسيط .

ان البطل في الرواية الجزائرية كما راينا ليس مثلا اعلى ولا نموذجا خارقا تتجسد فيه فكرة او مبدأ عام وانما هو بطل واقعي فيه كل ما في الواقع من مأساة وحرارة وصراحة سواء كان هذا البطل صغيرا او كبيرا رجلا او امرأة يمثل عاملا في مصنع او امرأة بين اربعة جدران .

٢ ـ في القصة

اما في القصة القصيرة او الاقصوصة فقد تطور البطل فيها شيئا فشيئا الى ان صار ممثلا لفكرة وطنية او فكرة مضادة (الخيانة) وهذا في الحقيقة يعود الى تطور المفهوم السياسي في الجزائر فمنذ الحرب الثانية دخل هذا المفهوم في مرحلة جديدة ايجابية تقتضيه العمل على التخلص من الاحتلال وقد تجمعت كل التيارات حول هذا المفهوم حتى تلك التيارات التي كانت يوما ما مضادة او مترددة او غير مؤمنة بمستقبل سياسي للجزائر فقد خاب امل الجزائريين الوطنيين في الحلفاء وساء الظن بالاجنبي حيث كان وظهر شعور بالكراهية في تلك الحملات الشعبية التي بدات بمظاهرة ٨ مايو ٤٥ واستمرت في الصحف والندوات والاجتماعات متطورة نحو العنف متجددة دائما بمفعول جديد الى مطلع نوفمبر ١٩٥٤ .

وابطال هذه الفترة يمثلونها اصدق تمثيل ويعكسون مشاعر الجمهور الوطني في خدمة وقوة سواء كانوا في الجزائر او خارجها فهؤلاء ابطال احمد عاشور وعلى الخصوص ابطال : يوم الجلاء وزواج عصري والرجلان والدب الابيض والاندماج وزوجة اوروبية . ففي اقصوصة يوم الجلاء(١) مثلا يتلاقى البطل ـ وهو مواطن جزائري مع كاتبة مسرحية فرنسية واخيها الرجل الصحفي المؤمن بالاشتراكية الى ابعد الحدود ويبدا الحوار بان تسال السيدة البطل عندما ترى العلم الفرنسي يرتفع مكان العلم الالماني ـ لماذا لا يبدو عليك الفرح مثلنا ؟ ـ لقد كان ذلك ممكنا لو آن علمنا هو الذي يرتفع مكان علمكم في الجزائر ـ(مندهشة) هل تمثل او تتهكم؟ وهنا يتدخل اخوها الاشتراكي فيقول ـ ان كنت تعلمين ان هذا السيد جزائري فهو يقول الجد ولا يتهكم . ـ فتجيب هي ـ ولكنه فرنسي على كل حال ـ ان هذه الحرب الاخيرة قد انتهت بثورة الشعوب المستضعفة في العالم في حماس رهيب . فتعقب هي ـ ان تحققت هذه الفكرة فالتاريخ سيعيد نفسه في الشمال الافريقي بنشاط عظيم .. ويومئذ .. فيكمل البطل ـ ويومئذ يصير الشعب غير معطل عن استعمال مواهبه ـ حبذا لو كان هذا فقط .. وفي هذه اللحظة يدوي صوت الرصاص فتحتمي السيدة بالبطل فيقول لها : هذا ما تريدون منا ، الحماية . فتسكت هي ولكن اخاها يبتسم .

ان هذه الروح الجديدة التي تتجسم في هذا البطل هي التي سادت قصص هذه الفترة تبعا لسيادة نفس الروح في الالوان الادبية الاخرى كالمقالة مثلا وهي التي سادت انتاج احمد حوحو وشريف الحسيني وزهور ونيس غير ان السيدة زهور قد اعتنت بالجانب النسائي في هذه الناحية اذ أن اغلب ابطالها من النساء وقد اعطت عن المرأة الجزائرية صورة صادقة في تأخرها وقسوة المجتمع عليها وتطلعها الى حياة افضل واكرم حين يتاح لها حظ من الثقافة .. وهي كذلك ترسم خطوطا كبيرة لمجتمع ذلك العهد لاننا نجد صراعا بينواقع نعانيه وبين امل يراودنا ونحاول الوصول اليه لا لكونه املا سياسيا فقط بل لكونه املا حيانيا فيه نهوض اجتماعي وتحرر سياسي واندفاع ثقافي واقتصادي . ويتلاقى مع السيدة

(١) جلاء الالمان عن باريس اثر الحرب الثانية .

زهور في هذه المحاولة وهذا التخطيط للمجتمع خوخو في قصتيه : عائشة وصاحبة الوحي وعاشور في قصتيه : عانس تشكو وصالح وخطيبته والحسيني في قصته سوزان .

اما البطل الذي يمثل الفكرة المضادة كما تصوره القصة الجزائرية فحسبنا ان نشير الى : الامام المزوز والمعلم الساحر ودرس في التوحيد لاحمد عاشور وسي زعرور وسيدي الحاج والشيخ زروق لرضا حوحو وكذلك بعض انتاج عبد المجيد الشافعي الاخير.

ففي هذه الاقاصيص يقوم البطل بادوار غريبة فيقدم على الخيانة احيانا والشعوذة وبيع الضمير احيانا اخرى واستغلال البسطاء والجهال من الشعب احيانا ثالثة .. وهكذا .. ان البطل هنا تافه ليس له رصيد من شجاعة او ضمير او تسام . وكل ما يريد ، هو الحصول على لقب او كرسي او مال اووسام او حتى وظيفة حقيرة .. انه هنا مثال البطل الارضي الذي يهمه فقط اشباع غرائزه الدنيا بما فيها من انانية وجبن وبشاعة ولو ادى به ذلك الى التضحية بوطنه او مبدئه او دينه ومقدساته.

والقصاصون الجزائريون يهدفون من وراء هذه الصور البشعة التي لفت المجتمع لامثال : هؤلاء المعوقين فيتخلص منهم ويقضي على وجودهم بالثقافة السياسية والاخلاق العالية والوعي الاجتماعي.. وهكذا نجد البطل حتى في صورته الدنيا واعماله الاخلاقية يحاول ان يدفع بالوعي القومي خطوات في طريق التحرر من الماضي ومن الفرقة والجهل والتواكل والياس .. تلك الامراض التي كادت تودي بكيان المجتمع الجزائري بتشجيع الاستعمار والمؤمنين به كل ذلك يؤديه البطل بطريق الضدية والتصوير بالكلام والاعمال الصارخة .

٣ ــ في المسرحية

يقول نقاد المسرح الواقعي : ان النثر قد جنى على المسرحية وصيرها تافهة في نظر الزمن لا تكاد تشاهد حتى تنسى ويذهب ما فيها من معالم وما تسوقه من اهداف ويقولون : ان لغة الشعر انسب واجل قدرا واكثر قابلية للخلود لما تحمله من عناصر باقية تتجدد طرافتها ودهشتها كلما اعيد تمثيلها وقد يكون هؤلاء النقاد من امثال (سومرست موم) و (فرنسوا موریاك) متشائمين بمستقبل المسرحية النثرية وقد تكون تجربتهم مع المسرح والقراء اثبتت لهم صدق ما يدعون . ولكن الذي لا شك فيه ان هناك مستوى لغويا وضمنيا يجب ان تحافظ عليه المسرحية واقعية كانت او رومانسية تاريخية او معاصرة . وهذا المستوى هو وحده الكفيل باعطاء المسرحية قوة الحياة وازخارها بعناصر البقاء والتجدد فليست العبرة في نظرنا بالناحية الشكلية من نثر او شعر بقدر ما هي ناحية موضوعية تتمثل فيها الطرافة والحيوية والصدق الواقعي . ولو كان الشعر هو الطريق لانجاح وتخليد المسرحيات لما فشلت ونسيت مسرحيات كثيرة عرفها نظارة القرن السابع والثامن عشر وهو العهد الذهبي للشعر . صحيح ان للشعر ذخيرته من الخيال والعاطفة وجمال الصورة وشفافية اللغة ولكن هذا ليس كل شيء لضمان الخلود فان للنثر ايضا جاذبيته وقربه من الذهن وامكانياته التعبيرية التي لا تتوافر للشعر مهما كان واقعيا .

ولعل الذي اغرى هؤلاء النقاد بمتابعة هجماتهم على المسرحية النثرية الواقعية انهم وجدوا الشعر اكثر تناسقا مع جلال النماذج البطولية الباقية وانهم وجدوا هؤلاء الابطال (النماذج) قد ظلوا محل اعجاب وتقدير من الاجيال الصاعدة متخذين من ابطال شكسبير وكورني وراسين وغيرهم حجة على خلود المسرحية الشعرية .

والحق اني لا أريد ان استمر في مناقشة هذه المشكلة الا بالقدر الذي يساعدني على تقديم البطل في المسرحية الجزائرية وكيف نظر كتابها الى مشكلة الشعر والنثر هذه وبأي الرأيين انتفعوا .. ولعل اول ظاهرة تلفت نظرنا اننا لا نجد سوى مسرحية واحدة شعرية تاريخية وهي مسرحية (بلال) للشاعر محمد العيد ..

وموضوع الرواية معروف تقريبا اذ تدور حوادثها في الحجاز على عهد الرسالة وعقدتها هي الاستماتة في سبيل العقيدة والبطل فيها ظل مثالا للايمان القوي والصبر الطويل حتى انتصر في النهاية ... وهي تحمل كثيرا من بذور المأساة في لفتها وحوادثها وهدفها وقد اعتقد محمد العيد ان بطله يؤدي بذلك عملا قوميا هادفا فان بلال قاوم جميع المغريات ورضى بالعذاب والاهانة في سبيل عقيدته حتى النصر في وقت كانت ــ الجزائر كلها تقاوم نفس المغريات من اندماج ومساواة بفرنسا وقد استعذبت الالم في سبيل المحافظة على شخصيتها القومية حتى انتصرت هي الاخرى في النهاية .

ومن قول بلال يتحسر ويتمنى وهو يعاني الآم القيد والرق :

آه من الرق آه قد ضقت بالرق ذرعا
لو انني كنت حرا صدعت بالدين صدعا
كيف الخلاص فاني وقعت في شق افعى ؟!

وفي سنة ١٩٥٠ اخرج احمد توفيق المدني مسرحية (حنبعل) التاريخية النثرية . وحنبعل هذا قائد وطني افريقي ثار على الاستعمار الروماني وانتصر عليه وطارده حتى مدينة روما ثم اعاد الرومان الهجوم فلم ير حنبعل بدا من الصلح تحت ضغط رجال السياسة من حاشيته وخيانة بعض افرادها وقد تولى حنبعل سلطة البلاد ولما اشتد امره واخذ يعمل على تقويض ملك الرومان من جديد تحرشوا به وارادوا له السوء فسافر الى الشام وهناك اشترك مع اليونان في استرداد اثينا التي كان الرومان قد استولوا عليها ثم انتقل تحت ضغط الظروف السياسية الى مملكة بثينا اليونانية على بحر مرمرة وهناك اخذ يعمل من جديد ضد روما بنشاط كبير ارعب قنصلها العام في تلك المملكة وجعله يطلب من ملك البلاد الضعيف تسليم حنبعل باعتباره احد الرعايا الخارجين على روما وعندما علم حنبعل بعزم الملك على تسليمه شرب السم وانهى حياته بشرف .

ولعلنا نرى من خلال هذا التلخيص الموجز ان المسرحية تكان تكون مأساة (تراجيديا) في كل شيء كما عرفها القرن السابع والثامن عشر وكما عرفها الاغريق من قبل . فالبطل ممتاز مؤيد بكل خصائص القوة والباس والجرأة والوطنية وهو محاط بالاعداء من كل جانب في الداخل والخارج وعليه ان يناضل ليتخلص من الجميع وينتصر ولكن كيف ؟ ان الظروف العديدة تتدخل لتطوح بالبطل الى الشرق وليجد الاعداء هناك ايضا . ولو عمد توفيق المدني الى تغيير بسيط في الحوادث ولم يلتزم الواقع التاريخي ولو هيأ الظروف لانتصار البطل في النهاية كما فعل كورني في (السيد) لكانت حنبعل مأساة عنيفة تعود بنا الى ما قبل زمننا الحاضر بمسافات بعيدة . ان الكاتب لم يراع الجمهور وشدة اعجابهم بالبطل المناضل وهو يسقيه السم ليختم به صفحة حياته الرائعة ولو احس باحساس الجمهور بدل هذا الاحساس المرهف بالتاريخ لاعاد الينا البطل حنبعل وفي يمينه رأس عدوه (شيبيو) وعلى جبينه طلعة النصر .

ولا يفوتني ان اقول ان اسلوب توفيق المدني الخطابي المفعم بالعواطف والمبالغات قد قرب لغة المسرحية من لغة الشعر تلك اللغة المحببة لدى

الهارب

ذكريات الماضي : ينابيع شوق
تتردى مجنونة في شعوري

راقصات ، أشباح حب ، تلوّى
في ثنايا الايام ، بين القبور

في وجوم ، رهيبة الهمس ، غيري
سائلات عن اللقاء الاخير

عن ورود اذويتها ، عن دموع
جففتها وانكرتها يدايا

عن وعود عن نشوة الالم الاول
عن قبلة الصبا عن منايا

عن شبابي المضاع ، الف سؤال
سبكتها كف السلو خطايا

ارقصي يا اطياف حب لسار
حائر كده سراب الحياة

عاشق الوهم ثائر الفكر مدفو
ع بسرب من الشياطين عات

رقصة الموت عجّلي فهو صنو ا
موت لا يرتجي بريق الآتي

ارقصي حوله ووارى عليه
ورقات يجن فيها الحنين

وادفني هاربا تطارده ذكرى ،
وخوف من موعد لا يحين

وتوارى عنه بعيدا الى حيث
تئن الشكوى وتبكي العيون

المانيا الغربية — « نزار الملائكة »

التراجيديين . وقد مثلت المسرحية سنة ١٩٤٨ ونشرت كما قلنا في ١٩٥٠ وهذا التاريخ يعتبر نقطة التجميع او فترة الهدوء الذي يسبق العاصفة لا في الجزائر فحسب بل في المغرب العربي كله ولذلك لم تكد تمر سنتان بعد ذلك حتى انقلب ذلك التجمع الى مشاعل ترفع في كل مكان وانقلب ذلك الهدوء الى عاصفة جامحة تنادي بالتحرر والتخلص من الاعداء وهي ما تزال في عنفوانها منذ ذلك التاريخ حتى الان . وقد كانت (حنبعل) ذات هدف معين سياسي تحرري ولذلك اهداها توفيق المدني (للشباب) المغربي حامل راية الكفاح في سبيل الحرية وشرف الوطن) ويقول على لسان حنبعل :« ان من اعتبر رجال الشعب عبيدا صيرهم لا يفكرون الا في الانتقام . ان عشنا فالوطن لنا جميعا وان متنا فالوطن لابنائنا من بعدنا الى الابد » وينطقه بهذه الجملة « ان العدو عدو دائما » وبالعبارة المشهورة « لقد ولدتنا امهاتنا احرارا » .

وتاتي بعد ذلك مسرحية (الحاجز الاخير) او الباب الاخير لمصطفى الاشرف فتحمل سمات جديدة للواقع وللكفاح معا . انها تصور الشعب الجزائري وقد تخلص من حيرته وبدا يتحسس طريقه الشاق الذي يؤمن بانه لن يجتازه بسهولة وهي تعطي الخيط لبداية المعركة الفاصلة او المأساة التي تتم فصولها بعد كما يقول كاتبها تلك المأساة التي نعيشها منذ حملنا السلاح بقيادة الامير عبد القادر الى النهاية او الى (الفد) كما يريد الكاتب ان يقول .

وحوادث هذه المسرحية تجري في شهر ديسمبر ١٩٥٤ (بعد الثورة بشهر واحد) وهي لحظة الانطلاق الاولى بالنسبة الى شعب الجزائر

.ولم يرد الكاتب ان يجعل للمسرحية بطلا معينا معروفا بالإسم والوصف وكذلك لم يرد ان يجعل لها عقدة واحدة خاصة تدور حولها الفكرة وتتجمع ولذلك عدد الاشخاص ونوعهم وغاير في المكان وحاول ان يعطي صورة كاملة للشعور العام عند الثورة وقد يكون البطل في الحقيقة هو الشعب الذي اعلن الثورة واذن فليست مسرحية شخص من الاشخاص او موقف من المواقف لان البطل فيها ليس هو فلانا او فلانة في بيئة او موقف ما وانما بطلها هو الشعب نفسه او الفكرة نفسها ان صح التعبير .

ففي الفصل الاول يعرض الكاتب جمعا من النسوة تجمعن امام باب احد سجون الجزائر يحملن سلالا بالطعام الى ذويهم وتدور بينهم مناقشات مختلفة فتقول احداهن (انانام ابنائنا وازواجنا. ان هذا الباب يفصل بيننا لكن القدر يصلنا . السجن واحد هنا وهناك) وتقول اخرى اننا نساء مسكينات وحيدات لكننا سنعرف كيف نقوم بكل الاعباء من اليوم ازاء الابواب التي تنغلق او التي لا تنفرج الا لتغلق . سنكون مفاتيح الخلاص الخالدة).

وفى هذا الفصل لا نستطيع ان نتبين ملامح بطل بعينه . اننا فقط ازاء فكرة تعرضها احدى اولئك النسوة في قولها (كلنا ـ رجالا ونساء ـ على هامش الحياة والعالم بفعاله وفي سيره نحو اهدافه حامل علينا نحن المكبلي الايدي) ولعل الاشرف اراد ان يعطي كذلك صورة للمراة الجزائرية ودورها في المفهوم الثوري الجديد .

وفي الفصل الثاني يعرض امامنا نفس الفكرة السابقة في ثوب آخر..

ـ ـ التتمة على الصفحة ٥٧ ـ